محاضرة رقم 05

1- تفاعلات الهوية مع الثقافة والفنون:

إن الحديث عن مسألة الهوية وما يؤثر فيها ويتفرع عنها في المجال الثقافي عموما والفنون خصوصا، في ظل هيمنة نمط حضاري ما، اتخذت العلمة أشكالا في فرض نفسها على الثقافات والأفراد، إذ في حالتنا العربية التي تعيش أزمة هوية يرى د.برهان غيلون "إن الهوية ليست صفة ثابتة وحامدة ترتبط بخصائص جسدية وثقافية موروثة، من أصل إثني ولغوي وسواهما، وإنما هي علاقة بين الخصائص الموروثة ومشاريع المستقبل التي يتطلع إليها الشعوب عبر الإيديولوجيات التي تتبناها في حقبة ما، وعندما تخفق تلك المشاريع يعود المؤشر إلى نقطة الصفر، أي إلى الفراغ المؤلم والمقلق، حيث لا سبيل على الخروج ممن هذه الازمة سوى بإنجاح ناجح لعملتين مترابطتين، تحرير مفهوم المواطنة "تأصل وانتماء خام" من الصيغة التي جسدها المشروع الفاشل بالتوازي مع بلورة مشروع ثقافي سياسي جديد يقدم الرؤية البديلة الواضحة للمستقبل، وقيما أخلاقية فاعلة للتوجه الذاتي وبناء السلوك الإيجابي في المجتمع والعالم.

أما على صعيد الفنون فيرى الفنان فاتح المدر، وهو فنان تشكيلي "لو استطاع الفنان فهم العوامل النفسية المميزة لشعبه لاستطاع التوصل على هوية جمالية"، وقد لاحظ فاتح والذي ترسخت هويته العربية أكثر إذ لم يتأثر في مرحلة الدراسة بالثقافة الغربية، وفي هذا الصدد كتبت سعاد الكواري عن فاتح المدرس أن الهوية المحلية المتميزة من أشق الأمور أواخر القرن 20،، لأن الفن التشكيلي فيه يفقد هويته الجغرافية لتقارب الثقافات بين الشعوب، مع قناعاته بأن "الحضارة الإنسانية قد عبرت في القديم، فلنستعدها، او أنها ستاتي بعد حضارة هذا الزمن فلنسع إليها، ولكنها ليست بحال حضارة العالم المقهور التي نعايشها".

وخاصة في ما يتعلق بالفن التشكيلي الذي اعتبره المدرس فكر وليس حرفة، واعتبر أن طهره هو طهر جوهر الإنسان، كان هذا قبل اشتداد الجدل في السنوات الأخيرة حول تأثير العولمة والمسائل المتعلقة بالهوية، من النواحي الحضارية والثقافية القديمة، وقدره هذه الهوية على الدفاع عن ذاتها.

إن المرحوم محمد عابد الجابري فضل تعريف الهوية بانها الوعي المتجدد بذاتنا، واعتبرها نتاج اجماع البشرية حول المرجعيات، لكنه شدد مع ذلك على أن مفهوم الهوية لا يزال يعاني من الغموض والتباين، ويحتاج إلى جهد نظري لتوضيحه أو إعادة تعريفه تماشيا مع التطور الاجتماعي الذي يفرض على التفكير العلمي أن يحدد فهمه للمفاهيم التي

يشتغل عليها أو يشتغل بها، فالهوية تشكل كغيرها من المفاهيم، وحدات الممارسات الاجتماعية والسياسية، وأيضا وحدات للتحليل الاجتماعي والسياسي.

أما نصر الدين لعياضي فرأى أن مفهوم الهوية لا يشكل موضوع اجماع في تعريفه وغاياته، وذلك لأنه طرح بعض القضايا المرتبطة بجوهر الوجود الفردي والجمعي والوطني، ويحدد خصائص الأنا مقارنة بالآخر، لذا لا بد من الاستعانة ببعض المحددات التي تساعدنا في فهمنا للهوية والتي نذكر منها على وجه الخصوص ما يلي:

- تحديد الأنا، يجري الحديث في الغالب عن الهوية كأنها الصورة التي نملكها عن ذاتنا وعن بلدنا.
- محدد الآخر: إن الوعي بالهوية لا يتم بالاستناد إلى إدراك خصائصها فقط بل يتحقق من خلال الوعي بالآخر.
- محدد الذاكرة: إن مفهوم الهوية يفترض الأنا الوحدوية والموحدة في الزمان والمكان وهنا تبرز علاقة الهوية بالذاكرة، ففي الذاكرة تترسب الهوية لتبقى وتحافظ على استمرارها وجودها.
- الهوية كمعطى منجز: الهوية ليست معطى منتهيا وكامل البناء، فالخصائص الجوهرية التي تبني الهوية لا تتشكل وإلا عبر جملة من التراكمات المعقدة، أي في ظل تطور تاريخي.

انتهى لعياضي أخيرا إلى انه "من الصعب الاقتناع بأن الهوية ظاهرة سياسية عقلانية، ومن الأصعب تجريدها من المضمون الثقافي، فالهوية تنتمي إلى حقل التخيل الذي يعد فعلا اجتماعيا وثقافيا تزن فيه الذاتية بكل ثقلها لتوجه التأويل الوجداني للحقائق الموضوعية.